راح شوقى يفكر فى كيفية عبور السرادق فى طريقه إلى باب منزله دون أن يشارك فى واجب العزاء.. إنه تواق للقاء أمه وأشقائه بعد فترة غياب زادت عن الشهر.. إنه فى شوق جارف لحضن أمه الدافىء ومشاعرها الحانية التى طالما أمدته بالقوة والقدرة على مواجهة الصعاب.. أين هو من أشقائه الذين أحاطوه بالحنان وغمروه بالحب.. كان لهم دائما الأب والأخ والصديق بعد أن فقدوا والدهم ولم يتعد الخمسين.. كان هو رب العائلة رغم سنوات عمره القصيرة التى لم تتعد العشرين.. كانت أسرتهم الصغيرة تظللها الألفة ويحفها الهدوء ويسودها الود والترابط.. هاأنذا قادم إليكم بعد طول فراق.. ها أنذا أتوحد معكم لايفصلنى عنكم سوى خطوات قليلة أود الإسراع بها لالتقى بكم . هكذا حدثته نفسه وهو يحاورها ــ ولكن كيف يتسنى له أن يعبر هذه المسافة ويدلف إلى منزله دون أن يظهر أمام المعزين.. وحتى لوظهر كيف يمكن له أن يصافح أهل المتوفى فقط ويعدهم بالعودة بعد تغيير ملابسه والسلام على أمه.. ونظر إلى هندامه وكأنه يختبر مظهره قبل أن يخرج من الردهة المظلمة فى طريقه إلى واجهة السرادق.. تحسس الجروح التى ملأت ساقيه.. والأربطة والضمادات التى لفت أقدامه.. واستعرض ثيابه غير المهندمة التى تسلمها من معسكر الشاردين ببورسعيد وأعدوها لهم على عجل.. لا.. لا.. لايمكن أن يؤدى واجب العزاء فى أحد جيرانه بهذه الهيأة التى لاتليق.. لابد من تغيير ثيابه وتعديل مظهره حتى لايثير على الأقل تساؤلاتهم الفزعة.

فجأة أفاق شوقى من شروده وكأن عقربا لدغه ـ لمح شقيقه الوحيد يتصدر المتلقين للعزاء.. يصافحه شباب الحى بحرارة وقد عجز حتى عن مد يده إليهم لمصافحتهم.. بعضهم ربت على كتفه قبل انصرافه من السرادق وهم يودعونه.. البعض الآخر احتضنه بعنف.. وقبله بصدق.. إن دموعه تنساب بغزارة من مقلتيه.. لايمكن أن تكون دموع شقيقه تأثرا بوفاة أحد الجيران.. لايمكن لهذه العبرات المنهمرة إلا أن تكون لفقد عزيز من أهله.. رباه.. أبعد هذا العذاب الذى كابده وهذه المرارة